﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ [يس: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

مـن صـفـاتِ المغلوبين اللّجوءُ إلـى الـشُّـبـه الخفيَّة، وتنفيرُ النّاس من أهل الحقِّ

لَمّا غَلَبَتِ الحُجَّةُ القومَ المكذّبين مِن كلّ جانب، وبَلَغَ قَولُ الرُّسُلِ: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مِن نُفوسِ أَصحابِ القَريَةِ مَبلَغَ الخَجَلِ، والاستِكانَةِ مِن إخْفاقِ الحُجَّةِ، والاتِّسامِ بِميسَمِ المُكابَرَةِ والمُنابَذَةِ لِلَّذينَ يَبْتَغونَ نَفْعَهُمُ: انصَرَفوا إلى سَترِ خَجَلِهِم وانفِحامِهِم بِتَلفيفِ السَّبَبِ، لِرَفْضِ دَعْوَتِهِمْ بِما حَسِبوهُ مُقنِعًا لِلرُّسُلِ بِتَركِ دَعوَتِهِم، ظَنًّا منهم أَنَّ ما يَدَّعونَهُ شَيءٌ خَفيٌّ لا قِبَلَ لِغَيرِ مُختَرِعِهِ بِالمُنازَعَةِ فيهِ، وذَلِكَ بِأَن زَعَموا أَنَّهُم تَطَيَّروا بهم، ولَحِقَهُم منهم شُؤم، ولا بُدَّ لِلمَغلوبِ مِن بارِدِ العُذرِ الذي هو أشدُّ مِنَ الخطأ[1].

وأيضًا: لَمّا ظَهَرَ مِن الرُّسُلِ المُبالَغَةُ في البَلاغِ ظَهَرَ منهم الغُلُوُّ في التَّكذيبِ، فلمّا قالَ المُرسَلونَ: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ قالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾، ولَمّا أَكَّدَ الرُّسُلُ قولَهُم بِاليَمينِ حَيْثُ قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ أَكَّدَ الكافرون قَوْلَهُم بِالتَّطَيُّرِ بهم؛ فجاءت هذه الآية[2].

وأيضًا: لَمّا كان حلولُ الصّالحين بين النّاس يكون تارةً نعمةً، وأخرى نقمةً؛ باعتبار التّصديق والتّكذيب، والإساءةِ والإحسانِ، فكان قد حصل لهؤلاء الذين كذّبوا هؤلاء الرسل بلاءٌ، لتكذيبهم لهم، مِن جَدْب الأرض، وصعوبةِ الزّمان، ونحو ذلك مِنَ الامتحان: ذكَر ما أثَّرَه ذلك عند أهل القرية، فقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ الآية[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 362.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 261.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 107.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَطَيَّرْنَا﴾: (طير) أَصْلُ الطِّيَرةِ مِنَ الطَّيْرِ، وهو الحيوان الطّائر؛ كالغُراب ونَحوِه، والطِّيَرة: التَّشاؤم، يُقالُ: تَطيَّر بالشَّيء، يتطيَّر، تَطيُّرًا، وطيرةً، أي: تشاءم به[1]، والتَّطايرُ: التَّفرُّق والذَّهاب، ومنه سُمّي التَّشاؤم طيرَةً؛ لأنَّ أغلبَ اعتمادهم كان مِن جهة الطّيور وأفعالها[2]، والمُرادُ بقوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: إنّا تشاءمنا بكم، ولم نر على قدومكم علينا واتّصالكم بنا إلّا الشّرّ.

2) ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾: أصلُ (رجم) الرَّمْيُ بِالحِجارَةِ، ثُمَّ يُستعارُ مِن ذلكَ الرِّجامُ، وهي الحِجارَةُ، يُقالُ رُجِمَ فُلانٌ؛ إذا ضُرِبَ بالحِجارةِ[3]، والرَّجَمُ - بفتْح الجيم -: القَبْر، سُمّي رَجَمًا لِما يُجْمَعُ عليهِ منَ الأحجار والرِّجام[4]، والرَّجم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْم، ومنه قَولُه تعالى حكايةً عَن أبي إبراهيم لابنِهِ إبراهيم عليهما السلام: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، أَي: لأَسُبَّنَّكَ وأَشْتُمَنّكَ، والرَّجيم في نعت الشَّيْطان المرجومُ بالنُّجوم[5]، والرَّجمُ في الآية مُرادٌ بِهِ القتلُ بالحِجارةِ رميًا.

3) ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾: أصلُ (مسّ) يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ بِاليَدِ[6]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِهِ، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: 51]، وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: 73][7]، والمَسوسُ مِنَ المياه: ما نالته الأيدي[8]، وحاجةٌ ماسَّة؛ أَي: مُهِمَّةٌ[9]، وحقيقةُ المَسِّ في الآية مُسْتَعْمَلٌ في الإصابَةِ على وجْهِ المجازِ بالاستعارَةِ.

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طير).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (طير).
(3) ابن فارس، مقاييس الله: (رجم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 316.
(8) الخليل، العين: (مسس).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال أصحابُ القَريةِ لِرُسُلِهم: إنّا تشاءَمْنا بكم، ومِن تبليغكم ودعوتكم؛ فقدِ افتتن بعضُ القوم بكم، وتفرَّقت كلمتُنا، وانفرط عقدُ وحدتنا، ولئن لم تنتهوا عن بثِّ هذه الدَّعوة بيننا: لنَرجمَنَّكم بالحِجارة رجمًا، ولنُمثِّلَنَّ بكم شرَّ التَّمثيل، أو لنُعذِّبنَّكم عذابًا شديدًا؛ وأنتم أحياء[1].

التَّطيُّرُ كان مِن شأنِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جاءتِ الآية بالفصل؛ على طريق الاستئناف البيانيّ؛ لِحكاية التّقاوُلِ بين القوم المكذّبين والمرسَلين، والسّرُّ في حذف العاطف - وهو الواو - أنَّ العاطف ينتظمُ الجُملَ حتى يصيِّرَها كالجملة الواحدةِ، فاجتنب لإرادة استقلال كلٍّ واحدة منها في معناها[2]، وفي الاستئناف البيانيِّ استدرارٌ لأسماع المخاطَبين، لأنَّ كلَّ جملةٍ واقعةٌ في جواب سؤالٍ مُقدَّرٍ، لمعرفة جواب الفريق الآخر، ممّا يُشعرُ بأهميَّته، ومطاولةُ المقاولة تدلُّ على عزّة المُرسَلين، وقوَّةِ حُججِهم، وتأثيرِها في نفوس المخاطَبين، مع قلّة عددهم، وتدلُّ على ضعف القوم المكذِّبين، وضعفِ حُججِهم؛ مع كثرة عددهم؛ فإنَّه لمّا ألزمهم الرّسلُ بأنّهم قد بلّغوا بالآيات الواضحة، وخرجوا مِنَ العُهدة: انتقلوا إلى بحثٍ آخَرَ، كما هو ديدنُ المغلوبين السّفهاءِ، حين يعجزون عن معارضة أهلِ الحقِّ العظماء[3].

إذا ضعُفت حُجَّةُ الباطل لجأ إلى إشاعةِ تشويهِ الحقِّ

فائدةُ التّأكيدِ بـ(إنَّ):

تفيد (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملة الاسميّة: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾،

التّأكيدُ صورةٌ لكمالِ إحساسِهم بكذبِهم وغلبتهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 416، و417، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 569، و570، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 152.

(2) ابن المنير، حاشية على الكشاف: 2/ 116.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 108.

وتقريرَها، والمقامُ مقامُ تأكيدٍ وتقريرٍ؛ للمبالغة في محاولة إظهارِ صدْقِ مقالتِهم، بعد غلبة حُجّتهم، وظهورِ مكابرتِهم وعنادِهم، إذ ليس لهم بعد دفع حُججهم إلّا التّأكيدُ والتّرهيبُ والتّخويفُ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان المكذِّبون يتوقّعون تكذيبَ النّاس لهم؛ لِما يرون على الرّسل مِنَ الآيات، وظاهرُ الكرامات، مِمّا يشهد ببركتهم: أكّدوا قولَهم بـ(إنَّ)، لتقرير شُبْهتِهم عند المخاطَبين[1].

دلالةُ حذْفِ النّونِ:

﴿إِنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أصلُه: (إنَّنا)، فحُذفت نونٌ مِن هذه النّوناتِ الثّلاثة، وغرضُ الحذفِ: تصويرُ الإسراعِ في إخبار الرُّسُلِ بالتّطيّر منهم؛ للتَّضجُّرِ والضّيقِ والغضبِ منهم؛ بقرينة سياقِ التّطيّر، وقولِهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوةُ حُجَّةِ الحقِّ ثـقـيـلـةٌ عـلى نفوسِ الباطلِ

دلالةُ إسنادِ التَّطيُّرِ إلى الجماعة:

أُسْنِدَ فعلُ التَّطيُّرِ إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ للإشعار بأنَّ جميع أهلِ القرية قالوا به، أي: يقول المقالةَ الواحدُ منهم، أوِ الجمعُ، فيوافقُهم أهلُ القرية رضًا منهم به، فكان إسنادُ التَّطيُّرِ إلى الجميعِ في ظاهر اللّفظِ على جهة المجاز العقليِّ[2].

الـرضّـا بـالـقـول بمثابة القولِ به

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على خبرِه الفعليّ:

جاء المُسنَدُ جملةً فِعليَّةً في قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ لتقوّيَ الحُكمَ، أيْ: لتحقيق تطيُّرِهم بالمرسَلين وتقريرِه، بمعنى أنَّ التّطيّر لا يكون إلّا بسببكم وسببِ دعوتِكم، كأنّه خبرٌ لا يحوم حولَه ريبٌ، وحُكْمٌ لا تُحيط به شُبْهةٌ؛ والقومُ بذلك يريدون تشويهَ صورةِ المرسَلينَ، فيُذيعونَ ذلك، ويُشهِرونه، ويبتغون أنْ يدخل في النّفوس،

إمـعـانُ أهـلِ الباطل في الكفرِ والعنادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 107.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 363.

فلا يخرجُ منها أبدًا، لِبُغضِهم للإيمان، وللرُّسُل، وعبَّروا بهذا الأسلوب إمعانًا في كفرِهم وعنادِهم.

بلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿تَطَيَّرْنَا﴾:

عُبِّرَ بقوله: ﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ على جهة الكنايةِ؛ وبيانُها: أنَّ الأصلَ في التّطيّرِ تَكَلُّفُ معرفَةِ دلالَةِ الطَّيرِ على خيرٍ أو شَرٍّ، من تَعَرُّضِ نوعِ الطَّيرِ، ومن صِفَةِ اندفاعِه، أو مجيئِه يُمنةً أو يُسرةً، ثُمَّ أُطلِقَ على كُلِّ حَدَثٍ يَتَوَهَّمُ منهُ أَحَدٌ أَنَّهُ كانَ سَبَبًا في لَحاقِ شَرٍّ بِهِ[1]، فاستعمله العربُ كنايةً عنِ التّشاؤم، وأنَّه لا يكونُ مِنَ المتطيَّر منه إلّا البلاءُ والشّرُّ، فقلَّما يُستعمل: (تطيَّرَ) في الخير، فلا يكاد يُستعملُ إلّا في الشُّؤم، والمعنى: إنّا تشاءمنا بكم، فإنْ أصابنا بلاءٌ أو شرٌّ فبِسببِكم، ومِن أجلكم[2]؛ وذلك أنَّهم كرهوا دينهم، ونفرت منهم نفوسُهم، وعادةُ الجُهّال أنْ يتيمَّنوا بكلِّ شيءٍ مالوا إليه، واشتَهَوه، وآثروه، وقَبِلَتْه طباعُهم، ويتشاءَموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم نعمةٌ أو بلاء قالوا: ببركة هذا، وبشؤم هذا؛ كما حكى الله عنِ القبطِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: 131]، وعن مشركي مَكّةَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: 78][3]، وفي التّعبير بالتّطيّر بسبب المرسَلين إيماءٌ إلى أنَّ دخولَهم في دينهم مُؤْذِنٌ بالشّرّ والبلاء، ففيه تحذيرٌ لقومِهم مِنَ الرّجوع عن عبادة الأصنام إلى توحيد الله، والإيمانِ برُسلِه.

مِن شُبَهِ الكافرين أنَّ الدّخولَ في دين الحقِّ مُؤْذِنٌ بالشَّرِّ والهلاكِ

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ لفظ التّطيّر جارٍ على الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، وذلك أنّ العربَ كانوا إذا خرجوا مسافرينَ، فمرّوا بطائرٍ زجروه؛ فإنْ مرَّ سانحٌ تيمَّنوا، وإنْ مرَّ بارحٌ تشاءموا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 362.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 502، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 449.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 9، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 395.

فلمّا نسبوا الخيرَ والشرَّ إلى الطّائرِ استُعير لِما كانَ سببًا لهما، مِن قدَرِ الله تعالى، وقِسْمته، أو مِن عمل العبدِ، بتشبيه الحظِّ بالطّائر، لأنَّه لا يُعرفُ كيف سَيطيرُ يمنةً أو يسرةً؟ فيكونُ التّعبيرُ بالتّطيّر ممّا تحصَّل مِنَ النّظر في الطّائر، ثم صار اللّفظُ مُستعارًا لِما يُتشاءَم منه، بكثرة الاستعمالِ[1].

وذهب آخرون إلى أنَّ لفظ التّطيّر جارٍ على المجاز المرسَل؛ وذلك أنَّ العربَ كانوا إذا أرادوا الإقدامَ على عملٍ منَ الأعمال، وأرادوا أنْ يعرفوا أنَّ ذلك العملَ يَسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ: اعتبروا أحوالَ الطَّير؛ وهو أنَّه يطير بنفسه، أو يُحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار فهو يطير مُتيامِنًا أو مُتياسِرًا، أو صاعدًا إلى الجوّ، إلى غير ذلك مِنَ الأحوال التي كانوا يعتبرونها، ويستدلّون بكلِّ واحدٍ منها على أحوال الخير والشّرّ بالطّائر، فلمّا كثُر ذلك منهم سُمّيَ الخيرُ والشّرّ بالطّائرِ؛ ليكون مجازًا مُرسلًا؛ مِن تسميةِ الشّيء باسم لازمِه[2].

دلالةُ صيغةِ (تفعّل):

أهـلُ الباطلِ يَشُقّون على أنفسِهم بالباطل

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ بصيغة (تفعّلَ) التي تدلُّ على التّكلّف، ليفيد أنَّهم كلّفوا أنفسَهم الطّيَرة، وأنَّها لم يكن لها مجالٌ عندهم في عَلاقَتهم وموقفِهم مِنَ الرُّسلِ، أي: حملنا أنفسنا على الطّيرةِ والتّشاؤم؛ ويَحتمل أن تفيد الصّيغةُ معنى الاتّخاذ كذلك، ليكون المعنى أنّهم اتّخذوا الطّيرة حظًّا بسبب الرُّسلِ ودعوتِهم.

فائدةُ الباءِ في قوله ﴿بِكُمْ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ سببيَّةٌ، ولمّا تعلّق الحرفُ بالضّمير (كُمْ) أفاد أنَّهم تطيّروا بسبب وجود الرُّسل بينهم.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 450، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 290، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 108.

(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 225.

نُكتةُ ربطِ سببيَّةِ التّطيّر بذات الرُّسل:

رُبِطَ التّطيّرُ بذات الرُّسل في قولِه ﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ولم يقل: (تطيّرنا بدعوتِكم) مثلًا، للمبالغة في بيان تطيّرِ القومِ المكذّبين بالرّسل مِن جهة دعوتِهم، فإنّه يلزمُ مِن تطيُّرهم بذواتِهم تطيّرُهم بوجودِهم بينهم، وبكلِّ ما يَصدرُ عنهم، ويفيد تطيّرُهم بذات الرّسل أيضًا الإيذانَ بإخراجِهم، أو قتلِهم؛ لأنَّ المُتطيّر مِن ذاتٍ ما يَجهدُ في إبعادِها.

المبالغةُ في التّشاؤم والإيذان بإبعادِهم

فائدةُ الفصلِ في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾:

لمّا قال المكذِّبون للمرسَلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ كان تطيّرُهم سببًا للتّهديد والتّوعيد، فجاء قولِهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ مِن غير عاطفٍ، ليكون استئنافُهم استئنافَ النّتيجةِ للسّبب، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليفيد أنَّ توعّدَهم للرّسل بالرّجم والعذاب الأليم نتيجةٌ لتطيّرهم بهم، ليُقنعوا قومَهم بما يريدون فعلَه بالرّسل[1]، فهذا التّهديدُ والوعيدُ بجملة ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ مِن لوازمِ جملة التَّطيُّرِ، فكان ذلك إفصاحًا بما سكتَتْ عنه، وتوكيدًا لها، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ.

الترقّي مِنَ الإشعارِ بالتّهديد إلى التّصريح به

فائدةُ لامِ القسَمِ:

تفيد اللّامُ الموطّئةُ للقَسَم في قوله ﴿لَئِن﴾ تأكيدَ مضمون الشّرط وجوابِه، وسببُ إيرادِهم جملةً مِنَ المؤكِّدات في بيان هذا الوعيد: ضعفُ شُبُهاتِهم ووهنُها، والإعلامُ بأنَّ ما أخبروا به مِنَ التّهديد لا فترةَ لهم عنه، فلا يتأخّرون عن رجْمِهم ومسِّهم بالعذاب الأليم[2].

ضعفُ حُجَّتِهم، فلجأوا إلى الدِّماءِ

سببُ مجيءِ الشّرطِ بـ(إنْ):

لمّا كانت (إنْ) الشّرطيةُ تفيد نُدرةَ وقوع الشّرط، أوِ استحالتَه:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.

عُبّر بها في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ لأنَّ المكذِّبين كانوا يشكّون في أنْ يترك المرسَلون بلاغَهم ودعوتَهم، لعلمِهم بصدقِ دعوتِهم، وفيه إيماءٌ إلى عناد المكذِّبين وطغيانِهم، لشكّهم في ما يدعون المرسَلين إليه.

من المستحيل شرعًا أنْ يقِف المرسَلون عن إبلاغ رسالتِهم

دلالةُ ﴿لَّمْ﴾:

في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ دخلت أداةُ الشّرط (إنْ) التي تكون للمستقبل على أداة النّفي والجزم ﴿لَّمْ﴾، فصرَفَتْها عن نفي الماضي إلى نفي المستقبل، والمعنى: إن لم تنتهوا بعد الآن لنرجُمَنَّكم، فيكونُ التّهديدُ أَشَدَّ وأقوى، لاقترانِه بالمستقبل.

قد بدَتِ البغضاءُ مِن أفواهِ القومِ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الفعلِ في ﴿تَنتَهُواْ﴾:

الانتهاءُ هو تركُ ما يُزجر عنه؛ بحيث يقف عند حدِّه، ولا يتخطّاه، وهو أبلغُ منَ النّهي؛ لأنَّ الانتهاء يكون لِما قد فُعِلَ، والنّهيُ يكون لِما كان قد فُعل، أو لِما لم يُفعل أصلًا، ففي التّعبير بلفظ ﴿تَنتَهُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ إشعارٌ بأنَّ الرُّسلَ قد بلَّغوا حَدَّ النّهاية في إبلاغ الرّسالة، وظهورِ الحجّة، بحيث طلَب منهم المكذِّبون أن يتوقّفوا عنِ البلاغ، وينتهوا عند هذا الحدِّ، ولا يتجاوزوه، لِقوَّة حُجَج المرسَلين، وعظيمِ بيانِها.

وصولُ المرسَلين إلى حدِّ النّهاية في إبلاغ الرّسالة وظهورِ الحجّة

دلالةُ الشّرطِ المنفيِّ:

لمّا جاء الشّرطُ منفيًّا في قولِه: ﴿لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ أفاد أنَّ الجزاء - وهو: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ - يقعُ بأيِّ أمرٍ يحصلُ به عدمُ انتهاء تبليغِ المرسَلين، مِن قولٍ، أو فعلٍ، أو إشارةٍ؛ ففيه تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ.

إيذاءُ الرُّسل وتهديدُهم بسببِ تبليغِ الرّسالةِ

دلالةُ حذْفِ متعلَّقِ الفعلِ:

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿تَنتَهُواْ﴾ في قولِه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ للإيذان بعموم الانتهاء، أي: (لئن لم تنتهوا عن مقالتِكم، ودعوتِكم،

وإبلاغِكم، وعن إنذارنا، وإن لم تنتهوا عمّا ذكرتم، مِن أنّكم أُرسِلتم إلينا بالبراءة مِن آلهتنا، والنّهي عن عبادتها)، فحُذِفَ المتعلَّقُ لقصد العموم، للإشعار بأنَّهم يريدون أن ينتهيَ الرّسلُ عن كلِّ شيء، كرهًا لهم ولِما يدعونَهم إليه.

كلُّ ما يكون مِنَ الرُّسلِ محلُّ تشاؤمٍ لدى الكافرين

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾:

لمّا أراد المكذّبون صراحةً أن ينتهي الرّسلُ عن كلِّ شيءٍ، أفاد بلازمِه أنَّ المكذّبين لم يَقبلوا أيَّ قولٍ مِنَ المرسَلين، ولم يستجيبوا لهم في أيِّ شيءٍ، وأنَّ كلَّ ما صدرَ مِنَ المرسَلين بوصفِ رسالتِهم كان عكسَ ما يشتهون ويرغبون؛ ففيه إشعارٌ بسوء ما كان عليه القومُ في الفعل والقول.

طلبُهم مِنَ الرُّسُل أنْ ينتهوا كنايةٌ عن غايةِ سوءِ تلقّيهم دعوتَهُم

سرُّ العُدولِ عنِ الطّلبِ إلى الشّرط:

لمّا تضمّن الشّرطُ معنى الطلب، بمعنى طلبِ المكذّبين مِنَ المرسَلين أن ينتهوا عن كلِّ شيءٍ في تبليغ رسالتِهم، كان كأنّ سائلًا يَسأل فيقول: فلِمَ لَمْ يَطلبِ القومُ مِنَ الرّسل الانتهاءَ بصيغة الطّلب، بأن يقولوا: (انتهوا)؟ والجوابُ هو أنَّه لو جيء بالطلب لكان يتطلّب جوابًا، والجوابُ حينئذٍ لا يكون إلّا بالوعد والخير، فيستمرُّ بابُ دعوتهم إلى الحقِّ، ومناقشتِهم فيه، وهم يريدون إغلاق هذا الباب، ومِثْلُه لو قيل: (لئن انتهيتم)، ولمّا لم يكن لهم ما يُقدّمونه للمرسَلين، وكانوا يعلمون يقينًا أنَّ الرّسل لا يَرْضَوْن بما هم عليه مِنَ الشّهوات والمنافعِ الدّنيوية: لم يكن بأيديهم إلّا أنْ يتوعّدوا الرّسلَ؛ لأنَّ قصدَهم زجرُ الرّسل عن إبلاغ رسالتِهم، والزّجرُ يحصل بالتّهديد والوعيد، فاقتضَى الكلامُ أنْ يكون بأسلوب الشّرط بصيغة ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾، ليكون جزاءُ الشّرط تهديدَ الرّسل بالرّجم والعذاب الأليم.

جَنحوا إلى أسلوبِ التّهديدِ والوعيدِ

دلالةُ التّعبيرِ بالرّجم:

الرّجمُ هو الرّمي بالحجارة، ولا يُستعمل هذا اللّفظُ إلّا في

التّعبيرُ بالرّجم يفيدُ الإبعادَ بالقتلِ أوِ الطّرد

مقام التّعذيب، على سبيل القتل، أوِ الطّرد والإبعاد، فكان تعبيرُ القوم المكذّبين بلفظ الرّجم في قوله تعالى: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ مفيدًا أنَّهم قصدوا إبعادَ المرسَلين عنهم، قتلًا أو طرْدًا مِن قريتِهم، وهو المناسبُ لتطيُّرِهم.

دلالةُ الجمعِ بين المعطوفَيْن في جزاء الشّرط:

الـزّجـرُ على سبيلِ الـتّرقّي في التّهديد أبلغُ وأشدُّ

لمّا جاء الجزاءُ بالعطف بالواو التي لا يبرحُها معنى المغايرة في قوله تعالى: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أفاد أنَّ الرّجم غيرُ مسِّ العذاب الأليم، فيَحتمل أن يكون المرادُ مِن ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلنَّكم بالرّمي بالحجارة[1]، فيكون مجيء المعطوف ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على سبيل البيان والإيضاح للرّجم، والمعنى: لا يكون الرّجمُ رجمًا قليلًا بحجر أو حجرين، بل نُديم ذلك عليكم إلى الموت؛ وهو عذابٌ أليمٌ، ويكونُ المُرادُ: (لَنَرْجُمَنَّكُمْ، ولَيَمَسَّنَّكُمْ - بِسَبَبِ الرَّجْمِ - عَذابٌ مِنّا أَلِيمٌ)[2].

ويَحتمل أن يكون العطفُ على التّنزّل، بمعنى: (لنرجمنَّكم بالقتل، وأقلُّ ما يصيبكم منّا هو العذاب الأليم).

ويَحتمل أن يكون ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بمعنى: (لنرمينّكم بالحجارة، طرْدًا لكم)[3]، والمعنى: (لنطردنَّكم، ولنبعدنَّكم)، أي: (لنخرجنَّكم من قريتنا)، فيكون مجيءُ المعطوف ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على سبيل التّرقّي في الزّجر والتّهديد، أي: (لا نكتفي بإخراجكم وإبعادِكم، وهو عذاب معنويٌّ، بل نزيدُ عليه الضّربَ والإيلامَ الحِسّيَّ)، وهذا مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 348، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 100، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 262.

(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير، ص: 12، و348، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 100، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.

لأنّ في الرّجم عذابًا أليمًا، والعذابُ الأليمُ يكونُ بالرَّجْم وغيرِه، وما مِن عذابٍ حسّيٍّ إلّا ويتْبَعُه ألمٌ نفسيٌّ، والألمُ النَّفْسيُّ يؤثِّرُ بالسَّلْبِ على الأعضاء والجوارح.

دلالةُ التّعبيرِ بالمسّ:

حـينَ يجتمعُ البـغـضُ والضّعفُ تظهرُ حقارةُ المُبْغِضِ

عُبّر بالمسِّ في قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ للإشعار بقوّة تأثير إيقاع الضّرِّ إن أوقعوا العذابَ بهم، بحيث يُخالِطُ العذابُ أجسادَهم، ويُحسّون به، ويُدركونه، وفي التّعبير به - دون الإصابة - إحساسٌ بأنّهم لن يبلُغوا في الرُّسُلِ ما يريدونَ مِن تعذيبِهم؛ لأنّهم مُؤيَّدون مِن قِبَلِ اللّهِ تعالى.

فائدةُ تتابُعِ التّأكيدِ:

تتابَع التّأكيدُ باللّام ونون التّأكيد في جزاء الشّرطِ في الفعلين ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ لإفادة إصرار القوم الكافرين على رجم الرُّسل، ومسِّهم بعذاب أليم.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

القومُ يُغلقون بابَ الدعوة، ويفتحون بابَ الحرب

أفاد التّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعلَين في قوله: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ تهديدَ الرّسل بأنَّهم يقصدون رجْمَهم ومسَّهم بالعذاب عاجلًا؛ مع استمرارِهم على رجمهم وتعذيبِهم؛ حتَّى ينتهي الرّسلُ عمّا يدعونهم إليه.

فائدةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ):

التَّجرّؤُ الصّريحُ على الرُّسُلِ

كلمة (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّنَّا﴾ لابتداء الغاية المكانيَّة، فيفيد ذلك ابتداءَ مسِّ العذاب مِنَ القوم المُكذِّبين، بمعنى: أنَّه يصدرُ منهم لكي يَخافهم المرسَلون، ويَهابوهم، فينتهوا عن دعوتِهم، وتبليغِ رسالتِهم.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعل:

يفيد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿مِّنَّا﴾ على الفاعل الموصوف

قُبحُ الكافرين وشدّةُ جرأتهم في زجرِ المرسلين عليهم السلام

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العنايةَ والاهتمامَ بالمُقدَّم؛ ووجهُ ذلك قصرُ صدورِ المَسِّ بالعذاب الأليم على المُقدَّم مع التّخصيص، أي: (ليمسّنكم مِنّا - وليس مِن غيرنا - عذابٌ أليمٌ)، والمعنى: (نحنُ بأنفسِنا سنقوم بتعذيبِكم، فالعذابُ يَمسّكم مِنّا، وليس مِن غيرنا، كما تقولون أنتم في تهديدكم إيّانا بأنّنا سنُعذّب مِمَّن أرسلكم)[1]، ففيه بيانٌ لشدّة قبحِهم وجَرْأتِهم على المرسَلين، وفي التّقديم أيضًا رعايةٌ للفاصلة ورؤوسِ الآي.

سببُ إيثارِ مجيءِ الفاعلِ وصفتِه نَكِرَتَين:

التّخويفُ بالباطلِ مِن سياسةِ الكافرين

لم يقلِ القومُ الكافرون: (وليمسّنكم مِنّا عذابنا الأليم)؛ بل قالوا: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لأنَّ القوم أرادوا المبالغةَ في الزّجر، بمجيء الفاعل وصفتِه نكرتيْن، ليدلَّ التّنكيرُ على التَّعظيم؛ فهو عذابٌ وسيعٌ، وألمُه جليلٌ لا يُطاق.

نُكتةُ وصفِ العذابِ بالأليم:

الإبلاغُ في التّهويلِ والتّخويفِ

لمّا كان العذابُ لا يكون إلّا أليمًا موجعًا: كان وصفه بـ﴿أَلِيمٌ﴾ للمبالغة في بيان الإيجاع والأذى، والمُرادُ هو التّعذيبُ المُؤلم مِن غير تقييدٍ بنوعٍ خاصٍّ، وهذا هو الظّاهرُ[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة (فعيل):

التّهديدُ بشدّةِ العذابِ كنايةٌ عن شِدَّة النُّفورِ

يَحتمل أن تكون صيغةُ (فعيل) في قولِه ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى اسم الفاعل (مُفعِل)، أي: عذابٌ مُؤلِمٌ، ويَحتمل أن يكون: ﴿أَلِيمٌ﴾ جاريًا على النَّسَبِ، مِن باب النَّسَبِ بالصّيغةِ، مثل قَوْلِه تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقّة: 21]، على حمله على ذلك، أَيْ: ذاتِ رِضًا، والمعنى: عذابٌ ذو أَلَمٍ، وهو أشدُّ مبالغةً مِن أن يقال عذاب مؤلِمٌ، وفي التّعبير بصيغة ﴿أَلِيمٌ﴾ رعايةٌ للفاصلة[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 418.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 262.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّشاؤم والتّطيّر:

التَّشاؤمُ بالذّوات، والتَّطيُّرُ أعمُّ

الشُّؤمُ خلافُ اليُمن، ويُقال: شأم فلان أصحابَه؛ إذا أصابهم شؤمٌ من قِبَلِه، والشّؤمُ في كلام العرب: النَّحس، وهو توقّعُ حصولِ الشّرّ مطلقًا مِن ذاتٍ مِن غيرِ سببٍ محقَّقٍ، وأمّا التّطيّرُ فهو مأخوذ مِنَ الطّائر في أصل إطلاقِه، وذلك أنَّ الرّجل قبل الإسلام إذا أراد السّفرَ بكّر إلى أوكار الطّير، فهيَّجها، فما ذهب عن يمينه سمّوه سانحًا؛ فيتفاءلُ بالسّانحِ، ويستبشر خيرًا، ثم يمضي في سفره، وما ذهَب عنْ شَماله سمّوه بارِحًا؛ فيتشاءم بالبارحِ، ويردُّه ذلك عن إمضاء أمره، فالشّؤمُ يكون بالذّوات، وأمّا الطّيرة فتكون بالذّوات، أو بالأعمال، أو بالأقوال، فالطّيرةُ أعَمُّ.

الطّيَرة والتّفاؤل:

شاعَ عُرْفًا مدحُ الفأل وذَمُّ الطّيَرةِ

الفرق بينهما هو أنَّ الفألَ إنَّما هو مِن طريق حُسْن الظنِّ باللّه، وهو ما يُظَنُّ عندَه الخيرُ، مثلُ الكلمة الحسنة، يسمعُها الرّجل مِن غير قصد، نحو: يا فلاح، يا مسعود، والطّيرةُ: إنَّما هي مِن طريق الاتِّكال على شيء سوى اللّه تعالى، وهي ما يُظَنُّ عنده الشّرُّ، فيكونُ بينهما تباينٌ كلّيٌّ.

أو يُقال: الفَأْل أَعَمُّ مُطلقًا منَ الطّيَرَة، وأَنَّهُ عِبارَةٌ عمّا يُظَنُّ عندهُ الخَيْرُ أو الشَّرُّ، وذلك أَنَّهُ تارةً يَتَعَيَّنُ للخَير، وتارَةً للشَّرِّ، وتارَةً يَتَرَدَّدُ بَينَهُما، فالمُتَعَيِّنُ للخَير مِثْلُ: الكَلِمَة الحَسَنَة يَسمَعُها الرَّجُلُ من غير قَصدٍ، نحو: يا فلاح، يا مَسعودُ، ومنه تَسميَةُ الوَلَدِ والغُلام بالاسم الحَسَن، حَتَّى متى سَمِعَ استَبشَرَ القلبُ، ومِثْلُ المنظَرِ الحَسَن يَراهُ الرَّجُلُ من غير قَصدٍ، فيستَبشِرُ به، والمُتَعَيِّنُ للشَّرِّ مثل الكَلِمَة القَبيحَة يَسمَعُها الرَّجُلُ من غير قَصدٍ، نَحوُ: يا خَيبَةُ، يا ويلُ، ومنه كَراهَةُ تَسميَة الوَلَدِ والغُلام بالاسم القَبيح، واستعمالُ الفأل في الخير أكثرُ، واستعمالُ الطّيَرة في الشَّرِّ أوسعُ[1].

(1) القرافي، الفروق: 4/ 262، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 381.

أو يُقال: إنَّ الفأل رجوعٌ إلى قولٍ مسموعٍ، وأمرٍ محسوسٍ، يَحْسُنُ معناه في العقول، فيُخَيَّلُ للنفس وقوعُ مِثْلِ ذلك المعنى، ويحسُن الظَّنُّ باللّه سبحانه، ورجاءُ الخير منه بأدنى سبب لا يقبحُ، والطّيرةُ أخْذُ المعاني مِن أمور غيرِ محسوسة، ولا معقولة، ولا معنى يشعر العقل بما يَتوقَّع مِن ذلك، فلهذا فارقتِ الفألَ.

والطّيَرَة لا تقع إلّا على توقُّع أمر مكروه، والفألُ يقَع على ما يُحَبُّ ويُكْرَهُ، والمُستحسَنُ منه ما يُحَبُّ[1].

(1) المازري، المعلم بفوائد مسلم: 3/ 178 - 179.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»